

حوار

يفتح النقاش حول قصيدة الزجل في المغرب، أو ما يسمى عربياً الشعر العامي، أسئلة كثيرة يدور أن كلاً من الدرس الجامعي والنقد الأدبي موجود على مسافة بعيدة منها. الجامعة المغربية لم تفتح أبوابها ورفضها لهذه التجربة الإبداعية بما يليق وفردتها. كما أن نقاد الأدب مشغولون بمختلف الأصناف الأدبية إلا بالزجل. فربما يرون فيه أدباً من الدرجة الثانية، وربما لا يملكون أدوات خاصة لمقارنته، فقد اعتادوا ممارسة

النقد بشقيه النظري والتطبيقي فقط حين يكون موضوع المقاربة هو الشعر المكتوب باللغة العربية الفصحى، وقد استوردوا ذلك مناهج ومفاهيم يبدو أن تطبيقها على الشعر العامي سيكون ضرباً من المغامرة. تفتح «الأخبار» قضية الشعر العامي في المغرب مع أحد أبرز كتابه وأبرز الباحثين فيه، مراد القادري الذي خصص أطروحة الدكتوراه لجماليات الكتابة في القصيدة الزجلية المغربية الحديثة، مشغلاً على المتن الشعري العامي

مراد القادري: الزجل أولك

ينظرون إليه ككتابة من الدرجة الثانية؟ الواقع أن قصيدة الزجل المغربية حظيت بأول اشتتاف أكاديمية لها سنة 1969، عندما أقدم الأستاذ عباس الجيراري، إحدى قامات الأدب المغربي الحديث، على مناقشة أطروحته الجامعية حول قصيدة الزجل التقليدية المسماة «الملحون». الاشتتاف لم يتم، للأسف، بين رحاب الجامعة المغربية، بل في «جامعة عين شمس» في القاهرة. وكيفما كان الأمر، فقد أُنسب هذا الحدث قصيدة الزجل شرعية كانت في ميسيس الحاجة إليها، وبخاصة أنها تصدر من جامعة مشرقية، في فترة ازدهار الثقافة المصرية وإشعاعها.

من الشعراء الذين يكتفون بالفطرة، ويتكئون على الذاكرة والارتجال. الشعر كدٌّ وجُهد معرفي وثقافي. وشاعر الزجل مدعو أن ينتمي إلى زمنه الشعري ويتفاعل مع مجموع المعارف والخبرات والفنون، ويعمل على استدعائها من مختلف مرجعياتها وأزمعتها الثقافية.

■ في الصدد ذاته، أشرت إلى أنك أنجزت بحثاً لنيل شهادة الدكتوراه حول التجربة الزجلية للشاعر أحمد مسيح، وهو بحث في غاية الأهمية. ما مدى حضور شعر الزجل في الجامعة المغربية؟ وهل يحظى هذا النوع الأدبي بالتقدير اللازم من قبل الأكاديميين المغاربة؟ هل تحس أنهم مثلاً

وهما معاً يشتركان في العديد من الخصائص التركيبية والدلالية والمعجمية.

لقد اهتمت الأطروحة التي أنجزتها عن الشاعر أحمد مسيح بهذه القضية. أي هل الفرق بين الشعر الفصيح والعامي لغوي فقط، أم أن هناك تمايزات أخرى بينهما؟ وأحمد مسيح، بالمناسبة، هو واحد من شعراء جيل السبعينيات في المغرب، الذي لم يتم الانتباه إلى مُنجزه الشعري، كما هي الحال بالنسبة إلى شعراء الفصحى محمد بنطلحة، ومحمد الأشعري، ومحمد بنيس، وعبدالله راجح، سوى لكونه كتب بالعامية بدل الفصحى. وجدث أن ثمة سرياناً وتفاعلاً قوياً بين الزجل والشعر المغربي المعاصر، وأن ما يشغل الشاعر المغربي المعاصر في البناء هو عينه ما وجّه اهتماماً أحمد مسيح بقصيدته، من غير أن تتخلّى هذه القصيدة عن ملمحها الذي تبنى به اختلافاً من داخل هذا التفاعل نفسه. فما يُميز القصيدة الزجلية المغربية الحديثة هو صوّنها لهويّتها الخاصة وقلقها المتفرد، ما يجعلها تَبني، من داخل اختلافها، صلات التواضع والتقاطع بينها وبين القصيدة المغربية الفصيحة.

برأيي، فإن المشكلة الأساس، سواء في الشعر الفصحى أو العامي، لا تكمن في طبيعة اللغة؛ من حيث انتسابها إلى الفصحى أو العامية، بل في مدى استطاعة الشاعر أن يستنطق هذه اللغة ويُقولها ما لم يسبق لها قوله، بنقلها من حال الوضوح إلى حال الإشارة والغموض.

■ نلمس في تجربتك الزجلية أثر الإفادة من معطيات الحدائث الأدبية، واستثماراً لتحويلات القصيدة العربية. هل الكتابة بوعي كهذا ضرورة؟ إلى أي حد تخدم المعرفة النظرية الشعر الشعبي؟ وماذا عن الذين يرون أن الدخول إلى القصيدة الزجلية بخلفية نظرية جامعية، قد يسلبها نضارتها وعفويتها؟

أؤكّد مرّة أخرى، أن الزجل، على الأقل ذلك الذي أنا معنيّ بكتابته؛ ليس شعراً عفويّاً؛ حتى أخاف عليه من المعرفة أو الفكر، بل هو شعْر واع بدوره في التأكيد على قيمة المهجة المغربية، ودورها في التعبير الشعري عن الذات والوجود، وبناء هوية لغوية تُثري القصيدة المغربية وترفدها بعناصرٍ فنيّةٍ وجماليةٍ جديدة. عندما نتفق على أن الزجل الذي نكتبه، ينتمي إلى أفق الكتابة لا الشفوية، التي سيحت هذا الشعر ورهنت مُعجمه ومتخيلته الشعري واستنزلت طاقاته الجمالية والرؤيوية، أتندّ سبباً بمقدورنا أن نستوعب طبيعة وخصوصية هذه النص ورهانه من أجل الإنفلات من لغة الوقائع والظواهر والإيضاح إلى لغة الإشارة والتلميح، وهو ما يستتبع بالضرورة التسليح بالفكر والمعرفة؛ ضدّاً على العفوية التي تسمّ قصيدة الزجل، كما هو متعارف عليها.

لا أريد أن أضرب أحكاماً، لكن أتصوّر أن الشعراء الذين يمشون إلى قصيدتهم مُسلّحين بالمعرفة أهمّ

الشعر قصيدةً عمومية أو شعبية، غير قادرة على أن تنتسب إلى حقل الأدب الرفيع، المكتوب باللغة العربية المدرسية. لقد استكثر عليه بعضهم صفة الشاعر، فيما كان هذا الأخير يلبس طاقية الإخفاء، ويتستّر، مُكرهاً، وراء تسميات مختلفة، حتى لا يُضابق جُمهور المحافظين الذين رأوا فيه تشويشاً على كل ما هو مُقدس، وتهديداً للغة التي نزل بها القرآن.

■ ربما سنلت كثيراً عما إذا كانت اللهجة تقف عائناً أمام انتشار الزجل؟ لكن لتأخذ تجربتك على سبيل المثال، فقد ترجم عدد من نصوصك إلى لغات أخرى، فصار بإمكان القارئ في عدد من بلدان أوروبا الاطلاع على نصوصك وفهمها، وهو أمر غير متاح ربما لقارئ عربي من بلدان الشرق.

اتفق معك. انتشار الزجل المغربي في المنطقة العربية محدود. وربما يعود ذلك إلى لهجتنا الدارجة التي يجدها بعض إخوتنا في المشرق صعبة، ولو أننا لاحظنا، أخيراً، كيف استطاعت هذه اللهجة أن تجد، عبر الأغنية، مسارب لها في وجدان المشاركة من خلال ما غناه سعد المجرّد وأسماء منور اللذان صدحا بشعر عامي مغربي، تجاوب معه الجميع شرقاً وغرباً.

مع ذلك، اسمح لي القول إن الأمر أكبر من ذلك، فالقصيدة الزجلية الحديثة، اليوم في المغرب، (وربما نفس الشيء يقال عن الشعر العامي الحديث في مصر ولبنان وسواهما من الأقطار العربية الأخرى)، ما فتئت توسّع وتعمّق المسافة بينها وبين مُتلقيها، ولو كان من أهلها وذويها، ما يحذ من «خرافة» الذئوع والانتشار. ذلك أن تلقّي هذه القصيدة صار مشروطاً بامتلاك المتلقي خلفية شعرية وثقافية لها القدرة على النفاذ إلى الطبقات السفلى للقول الشعري، بعدما صار هذا القول، غير معني بالنبوءة والتحريض، بل بالإدهاش والحيرة والانتصار للغةٍ موحية تتماشى مع الدواخل.

ضمن هذا السياق الشعري والثقافي، يمكن أن نفهم عبور القصيدة الزجلية المغربية الحديثة إلى اللغات الأجنبية: الفرنسية والإيطالية والإسبانية والإنكليزية وغيرها. ويمكن، هنا، الإشارة إلى ترجمة ديواني «غزير البنات» و«طير الله» إلى الإسبانية، وكذا ديواني «طرائفواي» إلى الفرنسية. كل ذلك، يكتشف، برأيي، جدارة هذه القصيدة وعدم إحساسها بأي مركب نقص قد يحذ من تواصلها مع العالم.

■ هل الفرق بين الزجل والشعر المكتوب بالفصحى هو فرق لغوي فقط؟ هل يقف اختيار اللغة كعنصر حاسم بين الشكلين؟ أم أن ثمة ضوابط وخصائص أخرى هي التي يمكن اعتمادها لتمييز الزجل عما سواه من شعر؟ لا أحب التمييز في الشعر. الشعر إما أن يكون أو لا يكون. لا فرق في ذلك بين فصيح وعامي، علماً بأن الدارجة التي يُكتب بها الشعر الزجلي هي سليل اللغة العربية،

■ دعنا نتفق أولاً على الجنس الأدبي الذي نكتبه؟ يسمى في المغرب زجلاً، وفي المشرق الشعر العامي، وهو شعر مكتوب باللهجة المحلية. هل ثمة فرق بين الزجل والشعر الشعبي؟

المغاربة درجوا على تسمية كل شعريهم المكتوب بالعامية زجلاً. حتى أوصح قلباً، كلمة «زجل» في المغرب لا تعني أبداً ذلك النظم البسيط والعفوي الذي يجري بالبديهة على الألسن، ويعتمد على الذاكرة، كما هي الحال في بعض بلدان الشام، بل هو ممارسة نصية؛ فيها الكثير من الجهد والكثافة الشعرية. إنه كتابة شعرية تقف في مستوى ما يكتبه شعراء الفصحى أو غيرها من لغات العالم. طموحها الاندماج في أفق الشعر الكوني. اللغة في قصيدة الزجل الحديث تكتسب هوية شعرية حديثة، لم يعد معها يُنظر إلى العامية، بما هي وسيلة للتخاطب اليومي والتواصل

”

تراجع صوت الشعر أمام التهاافت على امتلاك الحقيقة الدينية وتحول التهاافة والبلاهة إلى سلطة يومية

“

بين الناس في الشارع فحسب، بل بما هي أداة قادرة على سخن الألفاظ والجمل بدلالات إيحائية وتأملية، لم تعهد لها من قبل.

إذاً، كلمة «زجل» يختلف معناها في المشرق عن المغرب. والظاهر أن المغاربة اختاروا أن يُسموا شعرهم المكتوب باللهجة المحلية «الزجل»، ولم يختاروا تسمية من التسميات الأخرى الراجحة غرب العالم العربي وشرقها، مثل «الشعر المحكي» أو «الشعر العامي» لأنهم وجدوا في هذه الكلمة (الزجل) مُتكاملاً ثقافياً وسنداً شعرياً يصلبهم بحضارتهم العربية الإسلامية في الأندلس. ذلك أن الزجل وُلد في هذه الديار، ومنها هاجر إلى دول المغرب العربي حيث انتشر وذاع، وأقبل عليه الشعراء المغاربة يكتبون في أغراضه. إنها تسمية قادمة من الماضي، لكنها تحمل في طياتها الكثير من الوعد بالمستقبل، إذا علمنا أن أول ثورة مست شعرتنا العربي كانت في الأندلس مع ميلاد الموشح والزجل وسواهما من الأشكال الشعرية التي تحررت من قيود البحر الخليلي.

مع مرور الوقت، ستكتسب هذه التسمية (الزجل) قوة اصطلاحية بسبب اقترابها من الفن والطرب، بينما التسميات الأخرى تحمل معانيها الكثير من الالتباس الإيديولوجي.

حتى أعود إلى سؤالك، ليس هناك اختلاف سوى في التسميات. أما المسقى، فهو شيء واحد. إنه الشعر الذي اختار أصحابه أن يُكتبوه باللسان الدارج، وأن يطرزوا معانيه من تلك اللغة التي تُوصف بأنها لغة الخلم و الأم. والواقع أن أول جرح يلصق بهذا الشعر، هو جرح التسمية. فسواء في المغرب أو في سواها من الأقطار الأخرى، اغتُبر هذا

